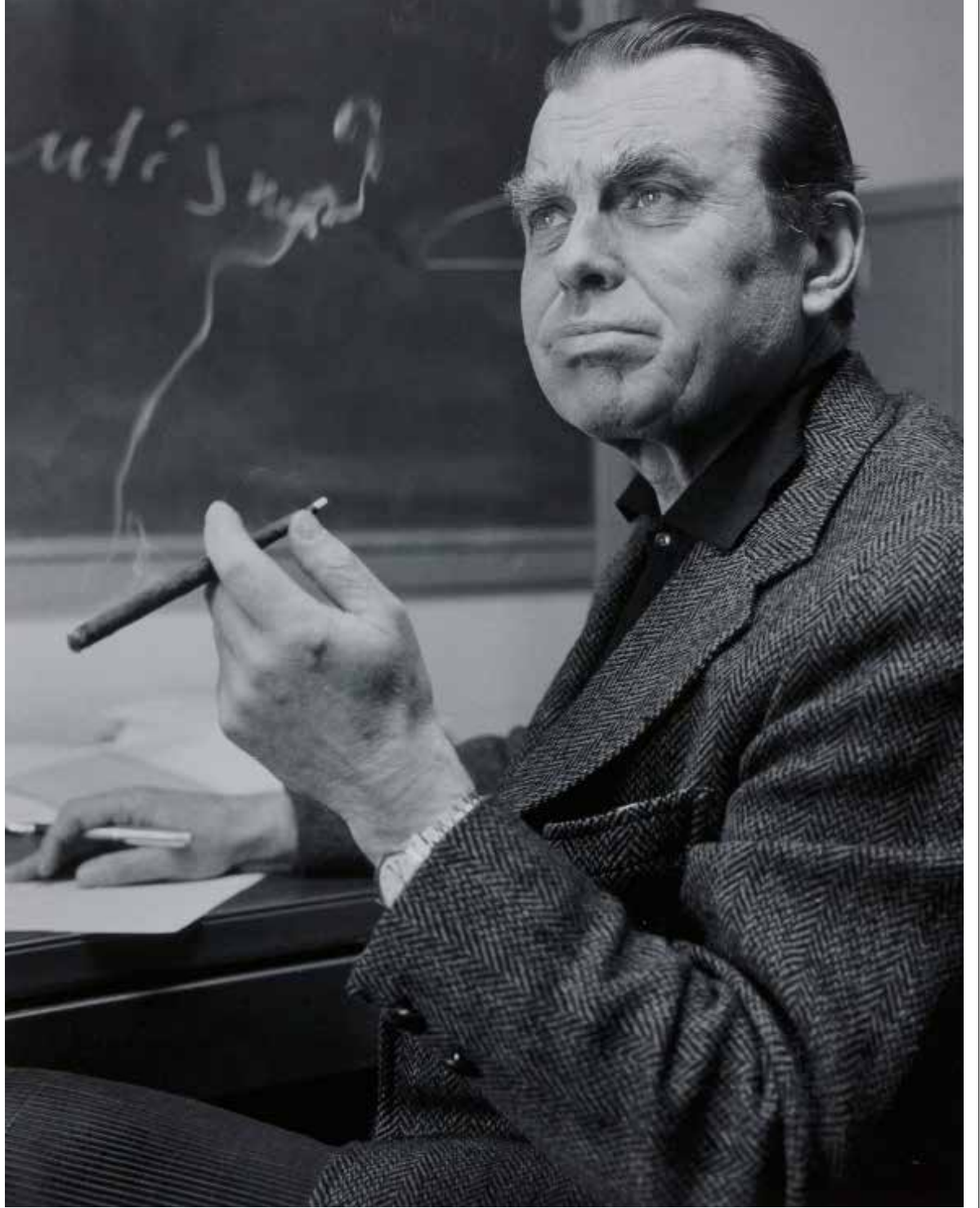


# تشييسوااف ميووش: لم أقل ما كنت أفكر فيه حقاً



ترجمة  
ولتقديم  
هاتف جنابي

لا خلاف اليوم بين المختصين في حقل الأدب وبخاصة الشعر البولندي، حول أهمية ومكانة ميووش الشعرية والأدبية. يعتبره البعض أهم شعراء بولندا، لكن غالبيتهم تميل إلى اعتباره أحد كبار شعرائها في القرن العشرين، واضعينه جنب كل من الراحل زبيغنيف هربرت (1924-1998) وتادوش روزيفيتش (1921-2014) وفيسوافا شيمبورسكا (1923-2012). ويلاحظ القارئ تقارباً في العمر بينهم، وعليه فهم من جيل واحد، رغم كون ميووش أكبرهم سناً. وميووش بحسب تعبير الشاعرة البولندية المعروفة يوليا هارتفيغ (1921) «قادر على تحويل المواضيع التي تبدو غير شعرية إلى شعر حقيقي. إن شعره مفتوح على المواضيع كافة التي تُثيره كإنسان، وهذا بحث ذاته أمرٌ نادر الحدوث لدى الشعراء الآخرين. ربما هذه صفة الشعراء الكبار». وميووش، وفقاً لرأي الناقد البولندي البروفسور يان بونوسكي: «يستطيع التكلم بكل اللغات الشعرية».

تشييسوااف ميووش (هكذا تُلفظ بالبولندية) ولد في 30 حزيران 1911 في ليتوانيا، في عائلة بولندية ذات تقاليد. كان يتكلم البولندية في البيت، والروسية في الشارع وأحياناً اللبتيوانية والبيلوروسية. تعلم اللاتينية أثناء دراسة الحقوق، وفي ما بعد العبرية، والانكليزية

والفرنسية. في عام 1937 انتقل نهائياً إلى وارسو. ساهم أثناء الاحتلال النازي لبولندا، في الحركة الثقافية السرية المناهضة للاحتلال. انتقل في 1945 إلى مدينة كراكوف التي هجرها إلى منغاف في الولايات المتحدة الأميركية ثم عاد إليها في 1993 ليقتضي فيها بقية حياته. كانت سنوات الخمسينات والستينات (أقام في باريس لاحقاً سياسياً منذ 1951، وفي 1960 عُيّن أستاذاً في جامعة بركلي في أميركا)، فترة تثبتت اسمه كشاعر وناقد ومترجم وروائي، لكنه في بادئ الأمر، حظي بشهرة خارج بولندا بفضل نقده الجريء، العميق واللامع، للوضع السياسي والثقافي لبلاده ومنطقة وسط وشرق أوروبا. في كتابه الشهير «العقل الأسير» الذي أنجزه أواخر 1951 وصدر في 1953 بثلاث لغات: البولندية والفرنسية والإنكليزية، تبعه برواية الأولى «الاستيلاء على السلطة» التي أصدرتها «دار غاليمار» في 1953. والأمر الذي يلفت انتباهنا في هذا المقام، هو رأيه في الرواية بشكل عام، كتب حينئذ: «اشتركت في مسابقة للرواية التي أعلنها... أحد نوادي الكتاب السويسرية، رغم اتفاقي مع رأي ستانيسوااف إغناطسي فيتكيفيتش، بأن الرواية ليست عملاً فنياً، إذ لا يعدو كونها «كيساً» يمكن للمؤلف أن يُعَبِّئ فيه كل ما في كبده»، مع ذلك فقد عبّأ

وتشيسوااف بعد تلك الرواية «كيسين اثنين»! لم يترك الفائز بجائزة «نوبل» (1980) موضوعاً إلا وكتب فيه شعراً، محافظاً قدر المستطاع على انضباط شعري، رغم تنوع الأشكال التي مارسها. من الناحية الشكلية استفاد من «المرونة» التي امتاز بها الشعر الفرنسي، لكنه حافظ على إيقاعه الشعري، وانضباط قصيدته بنويًا وفكريًا، وهو بذلك يذكرنا إلى حد ما بما امتاز به الشعر الأنغلو - ساسكي. هكذا هو شعر ميووش، لمن يقرأه للهولة الأولى، مزيج من الروح السلافية والإرث الفكري - الثقافي - الحضاري الغربي، بيد أنه ظل قلقاً، يبحث عن ذاته وتطوير أدواته الشعرية شكلاً ومضموناً حتى وفاته في 14 آب (أغسطس) 2004. عرفته شخصياً، وكانت لي معه قبل ذلك مراسلات أثناء منغاف الأميركي. منحني ثقته بالموافقة على ترجمة شعره، وكنت أول من ترجمه من البولندية إلى العربية مطلع الثمانينات. كتب في قصيدته «أرس بوتنيكا» (بيركلي 1968): «كنت دائماً أطلع لشكل أكثر رحابة، خلواً من إفراط الشعر والنثر...». وعن فائدة الشعر يجب في القصيدة نفسها: «فائدة الشعر أن يُدَكِّرنا كيف من الصعب عليك أن تكون ذلك».

حاول ميووش أن يلتحم بالواقع وبنفس القدر أن يبتعد عنه. كتب: «أخذ مواضيع كتاباتي هو البحث عن الواقع، الواقع هو معضلة حقيقية اليوم». ولكي ينجو من دنس الواقع، حاول أن يخلق لنفسه «بحبوحة»، أي تلك التي ينشدها الشاعر والفنان، وكأنه يُطبِّق فكرة سيمون وايل القائلة: «المسافة روح الجمال». المسافة التي يعمل على كسبها الشاعر والفنان بكده وعرق مسعاه. في اعتقاده هناك مستويان للواقع: المستوى الواقعي الفعلي - المكاني، والمستوى المتخيل. والشعر يجد نفسه في الفضاء الثاني. كان ميووش يعتقد في أعماقه، بهذا القدر أو ذاك، بأن الشاعر خاضع لقوة خفية، لشيطان الشعر. رغم المسافة التي أوجدها ميووش بينه وبين اللاهوتية إلا أنه لم يبتعد كثيراً عن فكرة أن المخيلة تبعدها الفضائي - المكاني قد ارتبطت وتشكلت من خلال الدين والمعتقدات. القوائد التالية غير منشورة سابقاً بالعربية، اخترناها (باستثناء أغنية حول نهاية العالم) من أشعار تشيسوااف ميووش في فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، التي كان يركز فيها الشاعر على ثنائية الفكرة والشكل عبر إيقاعية متميزة وموهبة واضحة وسمت أشعاره الأولى، وقادت في ما بعد لولادة ديوانه «الخلاص» (1945) الذي يعتبره النقاد البولنديون أحد أهم الأعمال الشعرية البولندية التي صدرت بعد الحرب العالمية الثانية.

## أنت الليلة القوية

أنت الليلة القوية. لا لهيب الشفاة يُدركك، ولا ظل الغيوم الصافية أسمع صوتك في دوائر اللحم الدامسية. وتشرقين هكذا كما لو أن النهار جاء. أنت ليلة. أنا وإياك في الحب على استرخاء خمنت مصير وسوء الحروب الآتية. يمززع الزعاع والشهرة من حولنا تجوز وتنطلق الموسيقى كما لو أن زجاجاً داسه حذاء.

أقوياء هم الأعداء والأرض ضيقة وأنت لها أيتها الحبيبة مخلصاً. عند مياه الأرض غصن لئلك حنئة الريح أشوؤ من غابة مجهولة. حكمة عظيمة، أيتها الفانبة طيبة غير أنثوية في يدك الواهنتين ولمع معرفة يُشرق فوق الجبين: قمر مستكين وبدر دون اكتمال.

## هم ذلك

مع ذلك كنا هكذا متشابهين بكل ابتذال أعضائنا وفروجنأ بقلبنا النابض بقوة في النشوة والخوف، بالأمل، الأمل، الأمل. مع ذلك كنا هكذا متشابهين بحيث إن الخنازين الكسولة وهي تتمطى في الهواء كانت تحسبنا إخوة وأخوات، يلعبون في وثام في حديقة مشمسة، فقط نحن لم نكن نعرف ذلك، منغلقيين كل واحد في جلده، على انفراد، لسنا في حديقة، لكن في أرض مريرة. مع ذلك كنا متشابهين هكذا، رغم أن كل ورقة عشب كان لها مصيرها، كل عصفور في الفناء، كل فأرة حقل. والرضيع الذي يحصل على اسم «يان» وربما «تريسا»، وُلد إما في سعادة طويلة أو مُعاناة وعار مرة واحدة حتى نهاية العالم.

## هذا العالم

من الواضح أن ذلك كان سوء فهم وما كان مجرد محاولة خرفياً أخذه. ستعود الأنهار بعد قليل إلى بداياتها، تتوقف الريح عن دورانها. الأشجار بدلاً من التبرعم ستسعى إلى جذورها. الكبار يركضون وراء الكرة، يتطلعون في المرأة ومرة أخرى يكونون أطفالاً. سيستيقظ الموتى دون أن يُدركوا. حتى يصير ما حدث وكأنه لم يحدث. يا له من انشراح! تنفسوا الصعداء يا من عانيتم كثيراً.

## إنس

إنس المعاناة التي ألحقتها بالآخرين إنس المعاناة التي بك ألحقت الحياة تجري وتجري الزئاع تتلألأ ثم تتلاشى تسيّر في أرض تتذكرها بالكاد أحياناً تسمع أغنية عن بعد ماذا تعني، تسأل؟ من هناك يُعني؟ الشمس الطفلية تُشرق حفيدك والحفيد الأكبر يولد مرة أخرى تُقاد الآن من يدك ما برحت أسماء الأنهار مع كيف تعرف الأنهار أن تدوم طويلاً حقولك هاجعة مُراحة، قلاع المدن ليست مثلما كانت وأنت تقف أبكم عند العتبة.

## هذا واضح

واضح أنني لم أقل ما كنت أفكر فيه حقاً، لأن من يستحق الاحترام هم الفانون، ولأنه من غير المسموح الكشف شفهاً ولا خطياً عن أسرار ابتذالنا الجسدي المشترك. ثمة عمل مخصص للمتردد الضعيف الحائر: في أن يرتفع ستمترين أعلى رأسه كي يُمكنه القول للباثس: «أنا مثلك أيضاً نذبت على نفسي».

## أغنية حول نهاية العالم

في يوم نهاية العالم النحلة تحلق فوق زهرة الكوبوسين الصياد يُلصق الشبكة اللامعة اللافتين المرححة تتقافز في البحر، العصافير الفنية تنقر الميزاب، والأفعى لها جلد أصفر، كما ينبغي أن يكون. في يوم نهاية العالم النساء يُمشين في الحقل تحت المظلات، السكر بنام على حافة العشب، باعة الخضروات يُنادون في الشارع والزورق ذو الشراع الأصفر يُبحر للجزيرة صوت الكمان يتواصل في الفضاء ويكشف الليلة النجمية. والذين انظروا البروق والرعود هم خائبون والذين انتظروا الإشارات والطبول الملائكية، لا يُصدقون أنها تحدث الآن. طالما أن الشمس والقمر في الأعلى، طالما أن النحلة الطنانة تزور الورد، طالما أن الأطفال المتوردين يولدون، لا أحد يُصدق أنها تحدث الآن. وحده العجوز الأشيب الذي كاد أن يكون نبياً، لكنه ليس بنبي، لأن لديه شغلاً آخر، يقول وهو يربط الطماطم: لن تكون نهاية أخرى للعالم، لن تكون نهاية أخرى للعالم.